

التفسير الروحي للتاريخ

د . مصطفى كمال وصفي *

أهمية المسألة وخطورتها :

من الملاحظ أن العناية بمسألة التفسير التاريخي قد ظفرت بمكانة بارزة هذه الأيام عند مفكرى الاسلام .

ولعل السبب فى ذلك أمران :

أحدهما : أن هذه الفكرة هى جماع الأصول الماركسية ومنبع جميع نظرياتهم .

وثانيهما : أن بعض المتحدثين عن الاسلام ، يحاولون ادخال فكرة التفسير المادى على القرآن الكريم ، ويتأولون من نصوصه ما يحاولون به أن يصلوه بهذه الفكرة .

ومن هؤلاء الدكتور راشد البراوى ، الذى وضع كتابا بهذا رأى ، وهو يدرس فى بعض كليات الأزهر الشريف للأسف الشديد .

* نائب رئيس مجلس الدولة المصرى

ولذلك فان الموضوع جد خطير ..

لأنه يؤدي الى محاولة خلط الفكر الشيوعي بالفكر الاسلامي وبالتالي الى الوصول الى ارساء أصول شيوعية في داخل البناء الاسلامي ، والباسها ثوب الاسلام لتسوغ على المسلمين وتجاوز عليهم •

هذه المحاولة جزء من مخطط شيوعي :

ومحاولاتهم في ذلك متعددة ..

وليست خافية ..

وقد بدأت هذه المحاولات - فيما شعرت به - منذ أوائل عام ١٩٥٤ - في زمن مقارب لفتنة الايقاع بالاخوان - وذلك بتحويل فكرة « أفيون الشعوب » الى اتجاه جديد ..

فالمعروف أن كارل ماركس قد عزى الى الدين انه يطفئ الثورة الشيوعية ، ويؤخر صدورها ويعوق سبيلها ، وذلك بأساليب التسكين والتهذئة : بالتعليل بالصبر والجزاء الأخرى والقضاء والقدر ..

وهو عندهم مما لا جدوى فيه ، ومما يعتبر من الأساليب الرأسمالية التي تتخذها لكبت الثورة العمالية ، ولتحصين الرأسماليين ضد العمال وتقيهم شرهم ، أو هي - على حد تعبيرهم - من التعاويذ والطواطم fitiches التي تتقى بها الرأسمالية شرور العمال ، كما يتقى الانسان شر الشياطين !!

ولكن رأت الشيوعية ان اعلان هذه الفكرة في البلاد الاسلامية التي يتمكن فيها الدين لن تنفذ الى القلوب ولن تجوز على الناس •
ولذلك فقد عمدوا الى حقن الناس بهذا الافيون - وهو الدين - ممزوجا بتعاليمهم ..

أي أنهم بثوا في هذه البلاد دعاية شيوعية مستترة أو متسرلة
بشباب الدين •

وأظهروا أن الدين الاسلامى — بما فيه من نوازع اعلاء المصلحة العامة والتضامن — يتوافق مع الاشتراكية حتى نادوا بوجود ما سموه
باشتراكية الاسلام ..

ومن الغريب أن هذه الدعوى جازت على من لا تتهمهم من
علماء الاسلام ..

فقد وجد هؤلاء النفر من العلماء أنه لئن يخرج الاسلام بشيء ،
خير من أن يظل بلا شيء ..
هكذا ظنوا ..

فقالوا .. نعم : ان الاسلام دين كل عصر وكل زمان ومكان
وما من جديد الا ونجده في الاسلام .. وكذلك هذه الأفكار
الاشتراكية الجديدة نجد لها أصلا في الاسلام مما هو كذا وكذا .. وأن
الاسلام هو دين الاشتراكية ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم (وكبر
ما يقولون مقتا عند الله) هو الاشتراكي الأول ..

وجرى حقن الشعب بهذه الحقن بطريقة مسممة .. وتسربت الى
دماء الجبال وسارت في دمائهم ..

في الوقت الذى تنبه فيه هؤلاء العملاء الى ما تردوا فيه فأنكروا
ما قالوا من قبل ، وعدلوا عنه الى القول بأن الاشتراكية هى التى
تستطيع أن تتطور الى الاسلام ، وأن تتجه اتجاها اسلاميا وأما الاسلام
فهو أصل ثابت حاكم لا يوصف بغيره ..

ثم فتح الشيوعيون بابا آخر للدس على الاسلام ..
ذلك هو القول بأن الملكية فى الاسلام لا تكون الا لله تعالى ..
أى للمصاحبة العامة .. وانها لذلك لا تكون للأفراد ، بل للدولة لأنها

هى الأمانة على المصالح العامة القائسة عليها .. وبذلك فان الملكية الخاصة ليست مشروعة فى الاسلام ، وأن الملكية العامة للدولة هى وحدها التى تتفق مع روحه وأحكامه .

ومرة أخرى التقم بعض علماء الاسلام هذا الطعم ..
وأيدوه بقوله تعالى : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه »
وسموا رأيهم هذا بنظرية الاستخلاف ..
ورد عليه علماء آخرون .

فتصدى له أبو الأعلى المودودى فى باكستان . ورد عليه كثيرون من العلماء فى سائر البلاد الاسلامية ..
ثم أنشأ الشيوعيون بابا آخر ..

هو القول بأن « الثورة المحمدية الأولى » تحتاج هذه الأيام الى تجديد ، وأن امتدادها الطبيعى هو الطريق الاشتراكى . وقد فصل فى ذلك رجل حكم بارتداده فى السودان - بمقتضى حكم أصدرته المحكمة الشرعية العليا فى الخرطوم فى ١٨/١١/١٩٦٨ - قال بأن فى القرآن آيات من الأصول - حان أوان اظهارها - وآيات من الفروع هى التى أظهرها النبى صلى الله عليه وسلم فى رسالته الأولى ، وذلك - فى التطبيق الديموقراطى - كآية « لست عليهم بمسيطر » وهى من آيات الأصول التى يتعين اعمالها هذه الأيام بدلا من آية الشورى التى طبقها النبى صلى الله عليه وسلم فى رسالته الأولى .. وفى التطبيق الاشتراكى حان تطبيق آية « وأنفقوا » وهى من آيات الأصول بدلا من أحكام الزكاة وهى فرعية بالنسبة لهذا الأصل ..

وربما كان دس التفسير المادى للتاريخ على القرآن دورا من هذه الأدوار .. وان كان لم تتحقق لى بعد محاولة نشر هذا القول على نطاق واسع ، ربما لكونه أمرا فلسفيا محضا ينشر على الخاصة فى نطاق ضيق ، ويثونه بدورهم فى خلفيات فكرهم ونظرياتهم ..

وقد كشف المفكر المصرى « عبد المنعم النمر » حقيقة التخطيط الشيوعى فى العالم الاسلامى (الأخبار - ١٩٧٦/٣/١) عن مجلة شيوعية هى الكوميونيست السوفيتية عدد أول يناير ١٩٦٤ . اذ جاء فى مقال لها عن الاشتراكية العلمية والدين ! « ان بين الاشتراكية العلمية والأديان السماوية صراعا مستمرا .. ولقد أوصانا لينين منذ البدء بأن إعادة التنظيم الفكرى للعقيدة الدينية وميراثها ومفاهيمها انما هى بمثابة (التنقيح للدين) وتحدياته للاشتراكية العلمية .. وستظل العقيدة الاشتراكية فى نزاع مع العقيدة الدينية ولن يستقر التحول الاشتراكى الصحيح الا بسيادة الاشتراكية على الدين . واذا اقتضت مراحل التحول الاشتراكى تعايشا مع العقيدة الدينية أو اظهارا للاهتمام بها فى بعض الحالات - كما فى المناطق الاسلامية - فان هذا الاهتمام هو من قبيل التدبير المؤقت . وفى بعض النظم الاشتراكية نجد جماعات من أصحاب المسؤوليات - وهم اشتراكيون فكرا واقتناعا - يمارسون الفروض الدينية ويشجعونها ، وهم يفعلون ذلك للسيطرة على زمام المعامل الدينية فلا تتحداهم (يعنى هكذا نيتهم) ونحن فى الاتحاد السوفيتى لجأنا الى هذا الأسلوب أيضا فى مناطقنا الاسلامية كما يلجأ اليه أقطاب الحزب الشيوعى فى ايطاليا الكاثوليكية ويرون أن نأخذ بالظاهر .. ففى مثل هذه المناطق الاسلامية وجدنا أن ممارسة الطليعة الاشتراكية للفروض الدينية يساعدنا كثيرا على مرحلة التحول الاشتراكى هناك لأن العبادة العلنية فى الوسط الاسلامى تعبر عن احترام الطليعة الاشتراكية للشاعر المحلية ، وبالتالي تنتزع هذه الطليعة من هذا الوسط الاسلامى الاحترام والطاعة للقيادة الاشتراكية ، ويطلبون منا أن نكون مغفلين (يعنى متدينين) ولكن من الضرورى أن يأتى وقت تقرر فيه القيادة الاشتراكية قرارا حازما بآلا مبرر بعد للهذنة مع الميراث الدينى وأصحابه ، والا أدت المهادنة الى بعث دينى فيه خطر على التجربة

الاشتراكية .. ان الدين نشطوا للدعوة بأن الاسلام هو دين الاشتراكية
يجب أن يكونوا على حذر دائما ، فلا نفع في هذه الدعوة اذا لم يصحبها
تحطيم للمنظمات الدينية وصهرها في بوتقة التحويل ، فتفتح الأديان
- كما أوصى لينين - يجب أن يصاحبه هدم كل القواعد التي يمكن أن
يتخذها الدين سبيلا الى البعث والتضامن والتماسك أو تحدى
الاشتراكية .. وحين نستخدم الميراث الديني ونظهر الاهتمام الشديد
به في مرحلة التحول الاشتراكي فلننفع ذلك على حذر وبين أعيننا وصية
انجلز وزميله ماركس التي تقول : حتى لو كان في الانجيل والكتب
الدينية الأخرى صفحة هنا وصفحة هناك تصلح لتأييد التفسير
الاشتراكي للأشياء فإن علينا أن نتذكر دائما أن جوهر الدين كله معاد
للإشتراكية .. فاعادة النظر في الميراث الديني ضرورة حتمية لنجاح
الاشتراكية وقطع الروابط الدينية بين الشعوب واجب تفرضه حاجات
النظم الاشتراكية .. وليس للإشتراكية في الدول المتخلفة - وفي
المناطق الاسلامية خاصة - سبيل الى الصمود بغير العمل الثوري . ان
الثورة شعار أبدي للإشتراكية في تلك المناطق والثورة تعنى تحطيم الماضي
وميراثه بما فيه الميراث الديني والذين يصونونه .. ومكافحة الدين
وروابطه لا تكون بنسف الدين ومعايده كلية من حياة الناس ، فان
الفأس لا تحطم ما في الضمير .. ولكن مهمة الاتحاد العلمي أن تتركز
الدعوة الاشتراكية على الترويج لشعار الثورة والتركيز على خلق وعي
مادى كالدعوة الى « العلم » في نفوس الجماهير لينفروا من الدعوة
الروحية التي في جعبة الايمان .. وليس من الضروري أن نهزأ من
قصص الانجيل والقرآن والكتب الدينية التقليدية وأن نقول أن المواعظ
والصلوات بضاعة لا تصلح الا للأطفال ، فهذا النوع من الدعاية
الاشتراكية ضد الأديان لا يفيد كثيرا ، وانما علينا أن نعيد تفسير
قصص الدين وسيرة رجاله ومواعظهم وأحاديثهم وأقوالهم بقلب

اشتراكى ، فاذا قلنا أن المسيح ثائر يطلب الحق للفقراء فهذا تفسير
اشتراكى • وبمثل هذا نقول عن محمد وغيره •

ما قيل لتبرير التفسير المادى فى الاسلام :

لقد قرأت مرارا المقالات والكتب التى تريد اقحام التفسير
المادى على القرآن ، فلم أخرج منها بفكرة جامعة يمكن تلخيصها وذلك
لأن الفكر الشيوعى اللاحق على كارل ماركس ، هو فكر عاجز
مفلس ••

ونزوعهم الى العلم والثقافة يقف عند حد المعاناة الفكرية التى
تسبب لأحدهم صداعا يعجزون معه عن متابعة التفكير السليم المستقيم •
وكل بضاعتهم أقوال ورثوها عن ماركس وانجلز - عفا عليها الزمان
وتغيرت ظروفها - حزلة اصطلاحية ركيكة سنية التركيب ومتهاففة
المعانى ••

وما تضمنته هذه المقالات والكتب يدل على الجهل بالدين والقرآن،
وسوء الفهم والاستنتاج •

فكلما وقع على آية فيها ذكر المال والثروة والاتاج ، أشاد بها لاثبات
أن القرآن يحترم المادية ويعليها •• ويتبنى التفسير المادى •• مع أن
المادية هى الالحاد وانكار الله سبحانه وتعالى وانكار الروح لأنها تقوم
على القول بأن الكون من أعلاه الى أدناه هو مادة ولا شئ غير المادة ،
وأن مظاهر الوعى والشعور والتفكير ما هى الا انعكاس من البيئة على
المادة التى تتكون منها أجسام الكائنات الحية من أدناها - كالنبات الذى
ينكمش باللمس وينحنى نحو الضوء - الى أعلاها كالانسان الذى
يتذكر ويتصور ويربط ويستنتج •• وقد أجاد المفكر الاسلامى يوسف
كمال محمد فى مقاله «فلسفة التاريخ كما بينها القرآن» (المسلم المعاصر
- يوليو ١٩٧٥) فى عرض هذه الحقيقة واطهارها •

ومثل هذا التمويه - بالخلط بين المصلحة المقترنة بحسن الانتفاع

بالأشياء ، وبين « المادية » بمعناها الاصطلاحي الخاص في الماركسية —
لا يمكن أن يؤدي الى شئ علمي .. وخاصة اذا صدر عن الجهل التام
بالدين والقرآن ..



ما هي قيمة محاولة تفسير التاريخ ؟

والواقع أن محاولة تفسير التاريخ هي أمر عظيم القيمة . فان
الدراسات التاريخية يختلف تقدمها حسب منهاجها . وأدنى هذه المناهج
هو المنهج السردى : وهو المنهج الذى يقوم على مجرد سرد الحوادث
سواء على أساس زمنى — سنة فسنة مثلا — أو على أساس التراجم
الشخصية — ككتب الطبقات المعروفة عند مؤرخى الاسلام — أو ذكر
المدن والأقاليم أو العهود السياسية ونحو ذلك .

وأفضل منها : منهاج التطور التاريخى ، وهو يقوم على استقصاء
الظروف الوضعية فى بيئة معينة فى زمن معين والحكم بالنتائج التى
تؤدى إليها هذه الظروف بقوانين طبيعية معينة .

وهذا المنهج يمثله ابن خلدون — فهو يحكم على حدوث التقدم
العمرائى عند وجود أسباب معينة .. واستخلص قواعد معينة للربط
المضطرد أو العكسى بين هذه الأسباب وتلك النتائج ..

وأشار اليه مونتسكيو فى كتابه « روح القوانين » عند القول
بأن القانون هو تعبير عن ارادة الشعب ، وأن هذا التعبير لا بد أن
يختلف من مكان لآخر ومن عصر لآخر ، اذ لا يعقل أن القوانين التى
تطبق فى الاسكيمو ، تصلح للمناطق الاستوائية .. أو أن القوانين التى
وجدت فى العصر القديم تصلح للعصر الحديث ..

وهذه النظرية فتنت ألباب الناس فى القرن التاسع عشر ،
واتخذوها أساسا لأفكارهم التاريخية والاجتماعية والقانونية ، واتفقوا
بذلك على النظريات الحتمية التى كانت سائدة من قبل ..

ثم تبين لهم أن هناك مثلا انسانية ثابتة لا بد من الاعتراف بدوامها وسيادتها ••

ولذلك فقد عدلوا عن النظرية المذكورة ، والتي تقرر أن القوانين والأحداث انما تتطور تطورا دائما بلا هدى ، الى الرجوع الى النظريات الحتمية التي تفسر التاريخ حسب حتمية معينة •

وبذلك فان النظريات الحتمية للتفسير التاريخي هي أرقى هذه النظريات وأعلاها ••

وهذه النظريات تقرر أن هناك حتميات عليا يسير التاريخ في هداها • وأن استقراء هذه الحتميات هو الذى يفسر لنا التاريخ ، ويهديننا الى المنهج الذى يجب تخطيط الحياة والنظم على أساسها •

وقد ظهرت على مر التاريخ نظريات حتمية متعددة ، وهى تنقسم فى مجموعها الى قسمين كبيرين :

نظريات حتمية الهية •

ونظريات حتمية طبيعية ومادية •

فالنظريات الحتمية الالهية تعترف بوجود القوة الالهية العليا التى تهيمن على البشر والمخلوقات فى الكون كله ، لكونها الخسالقة لها ، والمنشئة لطبائعها وخصائصها وبالتالي لقوانينها وحتمياتها ، ولنهايتها ومصيرها •

وهذه النظريات تستلزم الاعتراف بالروح أيضا ، لأن هذا الاعتراف يستتبع بظواهر روحية معينة ، تثبت وجود « الغيب » كما انه يستتبع الاعتراف بالبعث وما يصحبه من الجزاء الأخرى ••

وتؤدى هذه الحتمية الى التسليم بسيطرة القوانين الالهية على الحياة بمختلف مظاهرها ، بما فيها الحياة النظرية وخضوع الكون كله بما فيه من جوامد واحياء لهذه القوانين • ونتيجة لذلك : فان هذا

التسليم يؤدي الى تقييد النظم والتشريعات بهذه الحتميات وبأن تكون مجهوداتها مجرد محاولة لاستكشاف هذه القوانين العليا واقتفاء أثرها في منهاج الحياة وسيرها .

وأما النظريات الحتمية الطبيعية والمادية فأشهرها في العصر الحديث نظرية القانون الطبيعي ، ونظرية التفسير المادى للتاريخ .

وقد نشأت نظرية القانون الطبيعي في القرن السادس عشر كاعتراض على نظرية القانون الالهى التى كانت تنادى بها الكنيسة في العصور الوسطى ، أى انها قامت لأغراض غير دينية ، وان لم تجهر بذلك في البداية . واتتهى الأمر في هذه النظرية الى القول بأن الناس كالجوامد : يخضعون لقوانين طبيعية (فيزيائية) معينة . فكما أن المواد تسخن بالنار ، فكذا الانسان يسخن بالغضب ونحوه من عوامل الثورة . وكما أنها تبرد بالثلج فكذا الانسان بالكسل والترف ونحوهما .

ثم بعثت هذه النظرية في القرن الحالى على أساس دينى وذلك بالقول بأن القانون الطبيعي : « هو تلك المبادئ الرشيدة التى أودعها الله تعالى (خالق الطبيعة والناس) في عقول البشر » وبذلك وصلوا حتمية القانون الطبيعي بالحتمية الالهية وجعلوها أمرا واحدا .

وهذه هى النظرية السائدة الآن في الفكر الحديث . والتى تنافس النظرية المادية الماركسية وتناجزها .

وبذلك فان نظرية التفسير المادى للتاريخ — التى قال بها ماركس — هى نظرية حتمية .

لأنها تقرر أن البشر يخضع لحتمية مصيرية : هى حرب الطبقات . وأنه مسير بضرورة اقتصادية هو حل التناقضات التى تتوالى عليه بسبب غلبة الدوافع الاقتصادية التى تسير حياته . . وأن هذا المصير لا حل له الا بما يسمى « بالحتمية الاشتراكية » بلا بديل آخر .

وقد شرح الكثيرون هذه النظرية من قبل ، وأعتقد أن إعادة

شرحها - في مجال الفكر العالي - يكون تكرارا ثقيلًا .. كما أن إعادة
نقدها تكرار ثقيل أيضا ..

فنقصد للموضوع قصدا مباشرا ..
ونقول ، مع افتراض العلم بهذه النظرية وتقييمها :
هل يعترف القرآن الكريم بهذه النظرية ويؤيدها ؟
وان لم يكن كذلك :

فهل تضمن القرآن تفسيراً معيناً للتاريخ ؟

لا يعترف القرآن بالتفسير المادي للتاريخ ؟

وهذا قول لا يحتاج لبرهان . لأن الاعتراف بوجود الله سبحانه
وتعالى ، وبالروح ، وبالغيب ، وبالقضاء والقدر ، وبالحساب واليوم
الآخر : كل ذلك يتناقض مع القول بانكار وجود الله سبحانه وتعالى
وانكار الروح ، الحكم بأن الدافع الاقتصادي هو المسيطر على البشر
وأنه قد اقتضى حرباً طبقياً على النحو الذي أبرزته نظرية ماركس على
النحو المعروف .

هل تضمن القرآن تفسيراً معيناً للتاريخ ؟

ولا شك أن القرآن - وقد عمر بالقصص ابتداء من خلق آدم عليه
السلام الى ما كان من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومه من
قريش والأنصار وغيرهما - قد تضمن ما يهتدى به من حتميات أمر الله
تعالى وقضائه وقدره في عبادته ..

وقد صرح القرآن الكريم أحيانا بالمغزى المقصود - جزئياً أو
كلياً - في بعض المواضع كقوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم
ببعض لفسدت الأرض » البقرة - ٢٥١ .

وتركه غامضاً في بعض الأحيان الأخرى ، كقوله تعالى : « ولو شاء

ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين * الا من رحم ربك
ولذلك خلقهم *» هود - ١١٨ و ١١٩ *

ولذلك فاستكناه المغزى الشامل الكامل ، والتفسير الجامع
والحكمة العليا والمقصد النهائى ، هو أمر فوق طاقة البشر *
وانما نحاول هنا - مستغفرين قبل البدء - أن نرصد بعض
القوانين الربانية التى نظن - والله أعلم - أنها ذات شأن فى محاولة
هذا التفسير *

وهذه القوانين هى :

١ - أن الانسان عابد بطبيعته * وأن هذه الطبيعة أو الغريزة هى
التي تدفعه دائما الى اتخاذ معبود * وأنه ان لم يعبد ما ينفعه ، فانه
سيعبد ما لا يضره ولا ينفعه ، فيحقيق به ضرر الاخفاق فى العبادة
الصادقة *.

٢ - أن عبادة الله على وجه التوحيد هى أعلى العبادات وهى
وحدها التى تحقق خير الانسانية *.

٣ - أن هناك صراعا أبديا بين الذين يعبدون الله تعالى ، وبين
الذين يعبدون غيره *.

٤ - أنه يتعين الايمان بحتميات اسلامية مختلفة أهمها :

حتمية القضاء والقدر *

وحتمية النتائج المرتبطة بالأسباب الربانية *

وحتمية الثواب والعقاب والحساب *

القانون الأول : أن الانسان عابد بطبيعته :

ويقضى ذلك تعريف ماهية العبادة وحقيقتها :

فالعبادة هى الخضوع لقوة معينة والعمل وفقا لهذا الخضوع ، بنية
الاخلاص والتفانى لهذه القوة *

فإن كانت عبادة الله تعالى فهي تعرف بأنها الخضوع لله تعالى وحده بلا شريك له (أى الخضوع لأحداثه وأحكامه) والعمل وفقا لهما بنية الاخلاص لله تعالى وحده دون سواه • بحيث يكون الأول (أى الدافع له) والآخر (أى الغاية المقصودة) •

وان كانت عبادة لغير الله تعالى : فهي خضوع لدافع قاهر آخر والعمل لأجله بهذا الاخلاص والتفانى الذى يجعل هذا الدافع غرضا نهائيا ، يتفانى فيه كأول وآخر •

وفى كل الأحوال : فالعبادة لها ثلاثة عناصر : انها خضوع ، وعمل ، ونية •



• والدوافع القاهرة للانسان كثيرة •

وهى تنحصر — جملة — فى ثلاثة : الهوى • والطمع • والكبرياء ، استرشادا بما روى عنه صلى الله عليه وسلم : « ثلاث مهلكات هوى مطاع وشح متبع واعجاب المرء بنفسه » عن ابن عمر عند الطبرانى ^(١) أو « اذا رأيت هوى مطاعا وشحا متبعا واعجاب كل ذى رأى برأيه فالزم خويصة نفسك » •

فأى غرض من هذه الأصول الثلاثة — أو فروعها — استبد بالانسان وصار دافعه المحرك له وباعثه الذى يستنهضه ، من ناحية ، وغايته التى يقصدها وغرضه الذى يستهدفه : فان ذلك الغرض يكون منه بمثابة العبادة التى يخضع لها ويعمل من أجلها ويتوجه اليها •

وقيل فى تفسير : « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » البقرة — ان من كسب سيئة : أى انطبع قلبه بها • وأحاطت به : أصبحت باعته المحرك له وغايته التى ينتهى اليها ، فتكون — من عمله — أوله وآخره وبدايته ونهايته •

(١) قال فى الجامع الصغير : ضعيف • وعلى الرغم من ذلك فقد وجدت فيه تولا جامعا فى مصر أصول آفات النفس وميوها •

وبترجمة هذا العصر لمعاني « الهوى » و « الطمع » و « الكبرياء »
نستخرج معاني أشهر عبادات هذا الزمان •

فعبادة الهوى : هي بذاتها عبادة « الجنس » أى الشهوة • فقد
قرر أصحاب مدرسة التحليل النفسى أن الجنس هو الغريزة الانسانية
الوحيدة التى تتفرع منها جميع دوافعه ، وأن سائر ما اعتبره علماء النفس
الآخرون من الغرائز انما هو من مظاهر هذه الغريزة التى ترجع اليها
وحدها جميع نوازع النفس •

واذا صار الجنس هو الدافع والغاية فانه كمن قال الله فيه « من اتخذ
الهه هواه » فيكون عبادة له •

وعبادة الطمع : هي بذاتها عبادة « الاقتصاد » • فقد قرر ماركس
أن الاقتصاد هو الدافع الأعلى والوحيد لكل التصرفات البشرية وأن كل
النظم انما وضعت لخدمته ، وأن الرأسمالية كانت تتحصن بنظم الدولة
والدين والأخلاق والقانون لأجل استغلال الطبقة العاملة الكادحة
والاستيلاء على وسائل الانتاج وتسخيرها لصالحها ••

وماركس بدوره يريد أن يجعل هذا الدافع الأعلى غاية لنظامه
الاجتماعى الذى يقترحه ، وبذلك بأن « الاقتصاد » فى نظره هو الدافع
والغاية مما يجعله عبادة حقيقية ، أنكر فى سبيلها العبادة الالهية وأعلاها
على جميع القيم الانسانية •

وعبادة « الكبرياء » أساس لكثير من الأقوال الحديثة التى تنادى أن
« الشعور بالذات » و « بالوجود » هو المعنى الحقيقى لطعم الحياة
والحرية •• وأن لحظات « الوجودية » هى لب الحياة ، التى يجب فى
سبيلها التخلص من كل « كبت » يمنعه والوصول الى كل « تنفيث »
يحققه • وليس اضطراع الناس على « النفوذ » و « الشخصية » ونحو
ذلك الا تفاعيل وتصريفات للكينونية ^(١) والأنانية والذات والمظاهر ••

(١) أى لفعل كان يكون كيانا ••

ويدل على أن الإنسان عابد بطبيعته - مما ورد في القرآن - قوله تعالى : « مثلهم كمثل الذي استوقد نارا » البقرة - ١٧ •
فقد شبه الله تعالى الباحث عن الهدى بالذى يستوقد النار وهذا دليل على أن الإنسان بطبعه يبحث عما يخضع له ، لأن الإنسان يخضع نفسه لدليل الهدى الذى يستيقنه ••

ومنه قوله تعالى عن إبراهيم عليه سلام الله : « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى » الأنعام - ٧٦ وما بعدها ••

وليس مثل إبراهيم فى ذلك إلا مثل الإنسان عامة يبحث عن اله •• وما أغناه عن ذلك لولا غريزته التى تدفعه له • وهذا هو شأن البشر فى كل زمان ومكان •• يبحث عما يكمله وتحتاج روحه اليه ، وهو الله سبحانه وتعالى الذى أوجده واليه مرجعه •• ولقد أرسل الله تعالى آدم بالحق نبيا ورسولا ، وبذلك اقترنت البشرية منذ أول نشأتها بالعبادة •• وكلما اندثرت الأديان بحث عنها الإنسان وافتقدها •

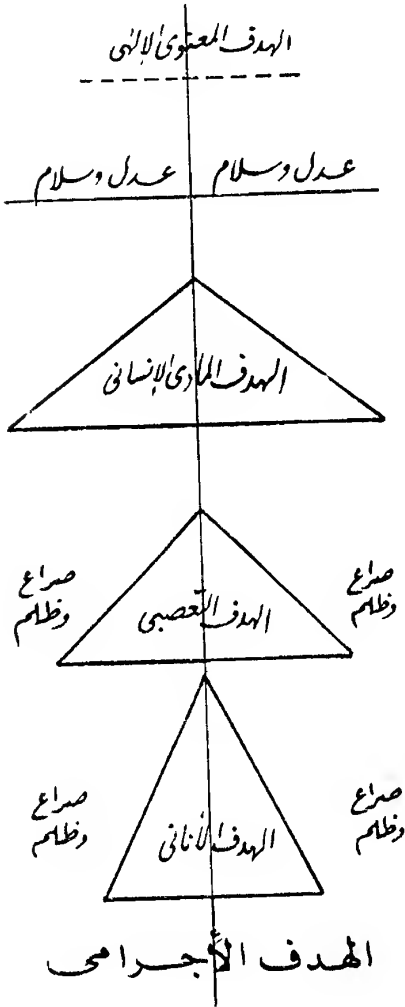
وقد بين الله سبحانه وتعالى أن الإنسان قد يضل فى هذه الغريزة بسبب انقياده لظاهر أمور الحياة التى تحجبه عن الحق سبحانه وتعالى • فذكر أصناف الشرك بالله تعالى من اتخاذ هذه الأغراض السابقة عبادات من دون الله •

ولعل عبادة الأوثان والأصنام هى أكثر العبادات سذاجة ، ولعلها أقل خطرا من عبادة الهوى والمسال والكبرياء التى تلتبس بالنفس ، فيشرك به وهو يحسب نفسه على الصراط المستقيم وقد ندد الله تعالى بعبادة الهوى بقوله :

- « أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم » الجاثية - ٢٣
- « أرايت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا » الفرقان ٤٣ •

القانون الثانى : أن عبادة الله أعلى العبادات :

وذلك لأن العبادة - أى الأغراض الانسانية النهائية - كلما ارتقت كلما كانت أقدر على تصفية الصراعات ، وعلى ارساء العدل والسلام •



وذلك طبقا لظاهرة تسمى باسم ظاهرة (تدرج المثل) وطبقا لهذه الظاهرة : فإن الاهداف الانسانية تتدرج من الهدف الاجرامى أو العدوانى ، الى الهدف الانانى ، الى الهدف التعصبى (الطائفى والعنصرى) الى الهدف المادى الانسانى الى الهدف المعنوى الانسانى • أو المطلق المجرد ، وهو الهدف الالهى الربانى • والهدف العدوانى أو الاجرامى - وهو أدنى هذه الاهداف - يؤدي الى انشاء الصراع والظلم حتى مع النفس لأن المجرم عدو نفسه وعدو للمجتمع • والهدف الانانى أو الانطوائى يؤدي الى مسالة النفس فقط وعداوة المجتمع كله ، مما ينشئ الصراع والظلم

والهدف التعصبى يحصر السلام والعدل داخل الكتلة التعصبية

(الطائفة أو الجنس أو الحزب أو نحو ذلك) وينشئ الصراع والظلم فيما عدا ذلك •

والهدف الانسانى المادى — كالاقتصاد — يحصر العدل والسلام الى مستواه ويضحى بما يفوقه كالحرية والكرامة الانسانية ونحوه •

وأما الهدف الربانى المعنوى الأعلى فهو يحقق السلام والعدل على طول قاعدة العلاقات الانسانية لأن الله سبحانه وتعالى يأمر بالعدل والاحسان ، ولأن هذه الأهداف تبصر بمختلف نواحي العلاقات الانسانية كالمخلق بالطائرة يبصر بمحيط الأفق بعكس الواقف فى طريق ضيق محصور •• فان المثل العليا الربانية — كالعدل والحق والرحمة والسلام وسائر ما تدل عليه الأسماء الحسنى — شديدة التحرى لعدم الافتيات على مصلحة من المصالح التى يرهاها الاسلام •• وهذا من شأنه أن ينفى التناقضات والصراعات التى تسبب التطور على الوجه الذى لاحظته هيجل وماركس ، مما يؤدى الى قابلية الشريعة الى الثبات وعدم تعرضها للحاجة الى التطور ، على الأقل فى كلياتها وأصولها •

ولذلك كله فالعبادات الدينية تضر ولا تنفع •

وكلما ارتقت الأهداف كلما كانت أكثر نفعا ومصلحة ، والعبادة الوحيدة الخالصة من الضرر ، المحققة للمصلحة الكاملة هى عبادة الله سبحانه وحده بلا شريك •

وهذا ملحوظ فى الانطلاق وراء هدف المتعة الجنسية أو هدف الطمع والمال مثلا :

فالمتعة الجنسية — اذا لم تكن فى كنف الزواج — تؤدى دائما الى الصراع لتعارض المصالح •

فان المرأة تمنع نفسها ، لأن استسلامها سيضحى بكيانها وفرصتها فى الحياة الآمنة المستقرة لعلها بأن الزانى بها يتخلى عنها اذا أشبع نهمته، ويحملها ثمرة هذه العلاقة (الوليد) لتشقى به •

فيزداد الرجل وجدا لذلك ويقابل امتناعها اما بالحيله والخداع حتى يوقع بها أو بالكبرياء والجفاء والتجنى .. واذا تذوقا مرة هذه الثمرة المحرمة فانهما يذوقان عذاب هذا الصراع مرات ..

كما أن هذه العلاقة قرينة الاعتداء والظلم ، فالزاني يظلم الزانية في سلبها عفافها الذي يشرفها في الناس وفي عدوانه على حقوق زوجها وأهلها ..

وأما في الزواج فتتوازن المصالح على بساط العدل والسلام كشأن كل العلاقات التي تقوم في رحاب الدين على أساس من العدل والسلام بين الجميع .. فالزوج يحسن لزوجته ويعدل معها وهي تحسن اليه وتعديل معه وأهلها وأهله وأولادهما والجميع في أمان من هذه العلاقة المشروعة ..

وبذلك فان العلاقات المشروعة تخلو من الظلم والصراع ويسودها العدل والسلام ..

وكذلك بالنسبة للمال ، فانه ان لم تكن حيازته في كنف الدين ، بأن يكتسب من حلال ويتوجه الى الحلال والى أداء المصالح المشروعة والانفاق على المصالح الواجبة ، فانه يكون مدعاة لحسد المحرومين وحقد المنافسين وتعالى صاحبه وزهوه به واستخدامه في الظلم والاستغلال ، فيكون أداة سوء بدلا من أن يكون أداة خير واصلاح ..

القانون الثالث : الصراع بين حزب الله وحزب الشيطان :

أو الصراع بين الخير والشر .. أو بين عبادات الحق والعبادات الباطلة .

وهو صراع بين المبادئ ..

فبناء على ما بيناه من أن الانسان عابد بطبيعته وأن هناك من يعبد الله تعالى ، وهناك من يعبد من دونه اطماع الدنيا وشهواته وأنانيته ومكائنه .. فبناء على ذلك يقوم الصراع بين الفريقين ، كل منهما يريد لعبادته ان تسود ..

فالمذهبية دائماً مكافحة مجاهدة •• وكل صاحب إيمان وعقيدة لأبد
ان يجاهد ويكافح من أجل نشر عقيدته ، أو على الاقل من أجل الدفاع
عنها ضد الحروب المضادة ••

فحتى لو سكن ولم يقيم بدعوة أو جهاد لعقيدته ، فان أصحاب
العقائد الاخرى سيردون عليه قوله ، طامعين في أن ييشفوا بعقيدتهم في
داخل نطاق المؤمنين بالعقائد الاخرى ••

وهكذا فان المذاهب والعقائد — بما فيها العقائد الدينية — لابد من
أن تجاهد وأن تدعو لنفسها وان ترد الحروب المضادة التي تشن عليها •
وكم من صف وقف فيه أهل القراة ضد آخر به أهل قرابتهم من أب
أو أخ أو ولد ••

وكم فرق المبدأ بين الأحياء ، وشنت الأصفياء ••

وحتى الشيوعية التي تدعى أن الصراع للاقتصاد ، قد آل أمرها
الى اقتحام حروب المبادئ والمذاهب ••

ان الحرب الباردة التي تلفح العالم الآن بزمهريرها ، هى حرب
مذاهب وعقائد وإيمان ••

وحربنا مع الشيوعية والمذاهب الاخرى هى حرب عقيدة وإيمان
فنحن نخشى على ديننا منهم ، وهم ينتظفرون بالتدين ليخدعونا ، كما
تقدم فى الفقرة المنقولة عن الكوميونيست •

ولو حكمنا الدافع الاقتصادى والعنصر المادى وحده لما بلغت الحرب
الى هذه الدرجة من الضراوة ، ولما اتخذت هذا اللون من الصراع المذهبى،
فان للحرب الاقتصادية لون آخر من التنازع على وسائل الانتاج وعناصره
وطرقه ، كمحاولة الاستحواذ على الموارد وطرق المواصلات والاسواق
ونحو ذلك •• وأما حرب المذاهب — وان أدت الى النصر النهائي لغرض
اقتصادى معين — الا أنها حرب تضحية وانفاق لا يتوازن مع المنفعة التي
تقرها وترسيها وتجنيها •

والثابت بنصوص القرآن الكريم أن الانسان قد جبل على مقاتلة
بعضه بعضا وعلى التنازع والتحارب ••
قال الله تعالى :

« قلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو » البقرة •

وقال : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم » •

وبسبب أن غريزة القتال هي غريزة حتمية مفروضة على الانسان ،
فانه لا مفر من التسامى بهذه الغريزة •• والارتقاء بها والعلو بها ، وتحويلها
من الصراع على الدنيا الى الصراع لاقرار الخير والمصلحة واعلائها ••
وضمهم الى نظام سلام لا صراع فيه ولا ظلم ، مادام هذا النظام سائدا ••

* * *

وقد نشأ الصراع على المبدأ والعقيدة منذ بدء الخليقة ، فان الشيطان
ناصب آدم العدا • وأعلن عليه حربا أبدية الى يوم البعث كما تدل الآيات
الكثيرة الواردة في القرآن الكريم •
وقد قال الله تعالى في ذلك :

قال ما منعك ألا تسجد اذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار
وخلقته من طين •

قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من
الصاغرين •

قال أنظرني الى يوم يبعثون •

قال انك من المنظرين •

قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراط المستقيم • ثم لآتينهم من بين
أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين •

قال اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبك منهم لأملان جهنم منكم أجمعين •

ويأدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين •

فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سواتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين • وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين • فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين •

قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين • قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين • (الأعراف من ١١ الى ٢٤) •

ومن ثم فقد استعرت الحرب الدائمة بين أولئك الذين يعملون على اقرار أوامر الله تعالى وتنفيذ أحكامه ، بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبين أولئك الذين يريدون ان تسير الأمور عوجا ويصدون عن سبيل الله ويأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، وذلك ليسيروا بأغراضهم المنحرفة، من الهوى والطمع والأنانية •

ومما ورد فى ذلك فى كتاب الله :

« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون •

« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » (آل عمران ١٠٣ ، ١٠٤) •

وقال سبحانه وتعالى أيضا :

« المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون » (التوبة ٦٧) •

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم » (التوبة ٧١) •

وقد ميز يوسف كمال محمد في مقاله « فلسفة التاريخ في القرآن » السابق ذكرها (المسلم المعاصر - يوليو ١٩٧٥) بين « التدافع » بمعناه القرآني ، و « الصراع » بمحتواه الفلسفي الجدلي •

وحدد « التدافع » بأن المقصود به الازهاق النهائي للباطل ليقضى على كل انحراف فيشتد الحق على الباطل حتى يزهقه تماما • بينما « الصراع » هو تطور عن طريق التناقضات التي يظهرها كل حل ، باعتبار أن كل حل يتضمن - في نفسه - عناصر تناقضه ويفتح المجال لما يأتي بعده من التطور •

وبذلك فان « التدافع » ينشأ عن حق ثابت لا يتغير ••

واما « الصراع » فيفترض تطور كل حل تتوصل اليه البشرية •

كما أنه انشأ مصطلحا جديدا سماه « الاختلاف » وميزه بأنه يقصد الى التكامل والالتقاء في انسجام •

وبين ان في المجتمع المسلم أنواعا من التدافع :

١ - في نفس المسلم بين الفجور والتقوى ، وبين الشيطان والانسان •

٢ - في المجتمع المسلم بين المعروف والمنكر ، أى بين أهل العدل وأهل البغى ^(١)

٣ - خارج المجتمع المسلم بين الكفر والايمان بين حزب الله وحزب الشيطان •

وهذا كله حسن وطيب •

ولكن حتى لا يؤدي ابتداع مصطلحات جديدة الى الاغراق في خلافات فلسفية وجدلية لا لزوم لها ، فأننى أفضل - فيما أرى - ان يعتبر « التدافع » و « الاختلاف » بالمعنيين الذين ذكرهما - من أنواع الصراع بحقيقته اللغوية والمفهومة منه •

فنقول :

ان هناك صراعا يستهدف الازهاق النهائى للنقيض وهو التدافع المقصود في الاسلام •

وان هناك صراعا يستهدف التوفيق والتكامل ، وهو الاختلاف الذى يؤدي الى تفاعل العناصر الربانية •

وان هناك صراعا عن طريق تطور المتناقضات التى يظهرها كل حل •

(١) من الواضح أنه لا يقسم المصطلح الشرعى المستعمل في باب البغى أو البغاة ، الذى يجعل الامام ومن معه هم أهل الحق أو أهل العدل ، والخارجين عليه - ممن يتألون عليه بأنه خالف الدين - هم أهل البغى أو الخوارج •

وبهذه النظرية التحليلية الواسعة ، نخرج بفهم جديد لقانون التطور .
وانه ليس قاصر على الصراع بمفهومه الأخير فقط - كما فطن هيجل
وماركس - ولكنه يشمل هذه الانواع الثلاثة • ولكل منها محل في التطبيق
الاسلامى •

فالاسلام يزهد ما يناقضه من الباطل ، لأنه كامل •

والاسلام يعتمد الى التوفيق بين العناصر والأوضاع الربانية -
كالشعب والسلطة في التشكيل المسمى بالأمة ، والزنا والتزواج في التشكيل
المسمى بالنكاح وكذا بالتسامي بأى غريزة انسانية وتوجيهها الوجهة
الصالحة ••

والاسلام أيضا يعتمد تطور المتناقضات التى يظهرها كل حد ، وذلك
كما فى كفيات استيفاء الضرورات مثلا وملاءمة هذا الاستيفاء ، اذ لاشك
أن بعض الاحكام الشرعية تتطور حثيثا فى مجال استيفاء الحاجات
والتحسينات وهذا واضح جدا وبصفة خاصة فى المعاملات كالأجارة
ونحوها •• ولا يرفض الاسلام أى نوع من هذه الأنواع الثلاثة من
التطور كل فى مجاله وللزومه ووظيفته •

وانما نقول هنا : ان الدافع الاساسى والسبب الأول للصراعات
بأشكالها المختلفة وأنواعها المتعددة هو دافع العبادة ، والصراع بين أهل
العبادة الحققة - وهى عبادة الله سبحانه وتعالى - وبين العبادات الباطلة
من عبادة المادة (الاقتصاد) وعبادة الهوى (الجنس بصفه خاصة) وعبادة
الذات (الكبر والنفوذ والطواغيت ونحوها) •

وهذا هو التفسير الروحى الشامل لحركة الانسان و « ديناميكية »
التاريخ الانسانى •

والذى يجب أن ننظر اليه فى ضوء الحتميات الاسلامية الواردة فى
الكتاب والسنة المعتمدة •

وليس فى ضوء الحتميات الاشتراكية (الاقتصادية)

ولا في ضوء الحتميات النفسية (الجنس)

فالواقع أن التفسير المادي للتاريخ — في ضوء الصراع بين الطبقات
ومنع الاستغلال الاقتصادي — وإن كان صادقا لحد ما وبصورة جزئية ،
يؤدي الى اعلاء « الاقتصاد » كغاية عليا — أو عبادة للبشر ••

ومن شأن ذلك أن يجعل المادة تسيطر على المعنى وتتجاهله اذا
تعارض معها •

وهذا هو السبب في أن الدول الشيوعية تضحي بالحریات والكرامة
الانسانية ونحوها من المعاني في سبيل الغرض الاقتصادي •

كما أن اعلاء المادة يؤدي الى تضحيتها بالأخوة والصداقة والقرابة
وسائر الروابط الأدبية ، على النحو الذي أصبح ملحوظا في هذه
الحياة •

فانه عند « القرش » ينسى الانسان المادي دينه ووطنه وأهله واخوته
وصداقته وينقلب على كل هذه القيم ويتحللها في سبيل المادة والمنفعة ••

ولذلك فعبادة « الاقتصاد » ومحاولة تقنين هذه العبادة وسيطرة
مشروعيتها بهذه النزعة الحديثة الملحوظة — سواء في النظام الشيوعي
أو الرأسمالي — ضارة أشد الضرر بالقيم الانسانية الصادقة والتي يجب
ان يستخدم « الاقتصاد والمال » في انجاز متطلباتها •• لأن الاقتصاد
وسيط الى هذه الغايات الحقيقية ، وسلم الى بلوغها وليس هدفا في ذاته •

ولم تفلح هذه النظم الحديثة الا في ايجاد « غيلان » تلتهم البشرية •
سواء كان هذا الغول هو الدولة والوسائل الجماعية في النظام
الشيوعي والاشتراكي •

أو كان هذا الغول هو رأس المال في النظام الرأسمالي ••
ومن أجل ذلك كانت النظرية الاقتصادية الاسلامية عادلة • وهي

التي تحقق الأمن الاجتماعى من هذه السيطرة المهلكة على الانسان
وتسخيره للمادة ..

فان هذه النظرية « حرية بلا فردية ونظامية بلا جماعية » (١)

ونحن نرفض بلا شك زواجا من أجل اثراء •

أو فكرا من أجل المادة ، بأن يستهدف المفكر الثراء من عمله
أو خضوع العمل للمال والآله • • ولأى وسيلة من وسائل النفعية والتسلق
الاجتماعى بمختلف مظاهرها لأننا نعمل مخلصين لله سبحانه وتعالى ومثله
العليا ، وليس من أجل المادة والمنفعة • •

فان اخضاع المعنى للمادة دناءة •

واعلاء المعنى على المادة نبل • •

وليس من العيب ان يسعى الانسان للمادة ، ولكن على أنها وسيلة
خادمة ووسيط لمعنى شريف ، وليس غاية نهائية فى ذاتها • •

وكذلك فعبادة « الجنس » بالقول بأنه الغريزة الوحيدة المسيطرة
وراء جميع التصرفات الانسانية ، الدافع الأعلى الحقيقى الذى يكمن وراء
جميع أعماله ، هذا القول يؤدى أيضا الى اهدار القيم والمثل ، وتفسيرها
- نفسها - تفسيراً جنسياً • •

نعم نحن لا ننكر الواقع ، وهو أن الجنس قوة دافعة جبارة فى
قانون الحياة ، وأن سائر الدوافع الاخرى ، يمكن تفسيرها تفسيراً جنسياً •
ولكنى أرى أن الانسان يتنازع فى هذه الدنيا أمران :

الأول: الموت : وهو باب كل تفكير ميتافيزيقى ، وكل تفكير غيبى • •

(١) أرجو أن يتسع لى المجال مرة لعرض هذه النظرية • ومعنى أنها حرة بلا فردية :
أى تعتمد على الجهد الفردى للصالح العام وليس للمصلحة الشخصية • وانها نظامية
بلا جماعية أى تقوم على التضامن دون اعتماد على الوسائل العامة الجماعية •

فهو الذى يدفعه للنظر فى التفكير فى القوى العليا المسيطرة ، والقضاء والقدر ، وحكمة الحياة والاشياء ، والخير والشر .. ويفتح له باب الخوف والرجاء فى هذه الأمور ، ويؤسس فى نفسه كل الصفات المعنوية والقيم الأدبية التى تشكل الفناء اللانهائى والعقيدة القوية الصلبة التى لا تتزعزع ولا تنقضى ..

الثانى : الحياة : وهى باب كل تفكير مادى لاشباع الهوى والطمع والكبرياء .. وهو الذى يجعله يسعى بكل قوته لتحصيل الأسباب المشبعة لهذه الغايات الموقوتة التى يخضع لقوانين المادة ..

فان الانسان ما أن يقضى نهسته من امرأة حتى يزهداها .. ولا من مال حتى يصير عبئا عليه (١) . ولا من كبرياء حتى ينطوى بسا يجلبه عليه التنافس من أحقاد وصراع ..

ولكن ذلك كله لازم لتحقيق المعنويات التى يجلبها التفكير الميتافيزيقى ، والأغراض اللانهائية التى يحتمها التفكير فى الفناء . فان فعل الخير لذة وممتعة .. ولذلك يجب أن يستخدم هواه الوقتى لتحقيق أغراضه المعنوية اللانهائية ..

وأن الحصول على المادة لذة أيضا ، كما أنه لازم لفعل الخير وتحقيق سيطرة المبادئ .. ولذلك يجب أن يستخدم طمعه الوقتى لتحقيق هذه الأغراض المعنوية اللانهائية أيضا ..

وكبرياؤه لازمة لغضبته للحق ، ولعزة الايمان وكرامة العقيدة .. ولذلك يجب تحويل هذا الدافع المكروه فى ذاته الى دافع شريف لازم لسيادة المبادئ ..

وهذا من معانى « الاختلاف » الذى أشار اليه الأستاذ يوسف عما فى مقاله السابق ذكره ..

(١) حسب قانون المنفعة المشهور فى الدراسات الاقتصادية .

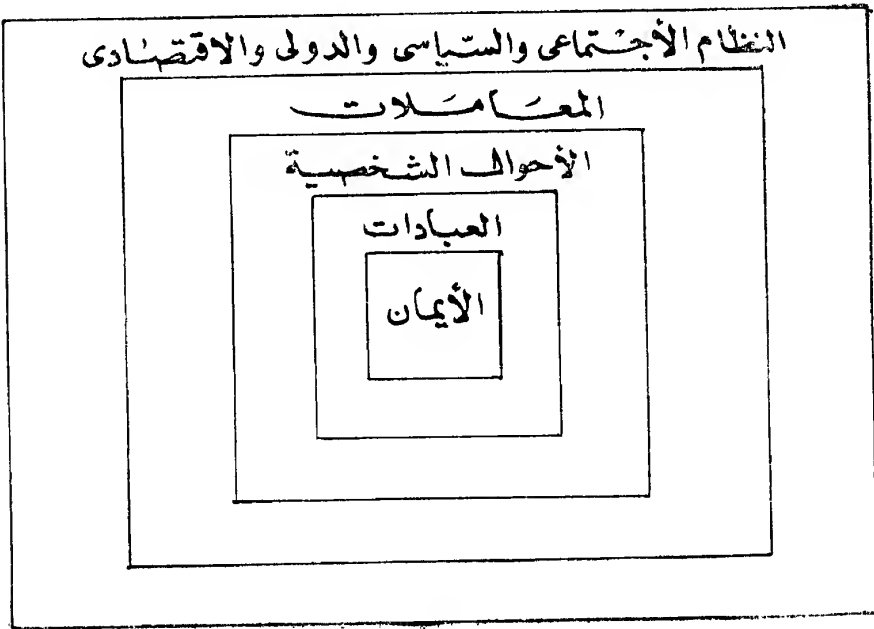
وبذلك فإن « الموت والحياة » (سورة تبارك - ٢) معا دافعان متكاملان لديناميكية التفسير الروحي للتاريخ .

وليست « الحياة » فقط بدافعها الاقتصادي كما قال الماركسيون والرأسماليون ، ولا بدافعها الجنسي فقط كما قال النفييون من أنصار التحليل النفسي ، وانما بتكاملهما معا ، حتى يتحقق الخلود واللانهاية والأغراض البناءة الدائمة بالنظر الى عنصر الموت ويتحقق الانتفاع القوى للوسائل اللازمة لتحقيق المبادئ والمعنويات بالنظر الى عنصر الحياة .

ولا شك أن « المادة » توجد نوازع روحية في الانسان من الشوق والأمل واشباه ذلك وأضداده . ولكن يجب نقل هذه النوازع من الأغراض الوقتية الفانية الدنيئة الى الأغراض الدائمة اللانهاية الشريفة التي يبعث عليها الفكر المعنوي .

القانون الرابع : الايمان بالاحتميات الاسلامية المختلفة :

فان عدم الايمان بأى حتمية من هذه الحتميات يعرقل سريان الايمان في النفس ..



فان الانسان اذا وجد في قلبه حرجا من تقبل أى أمر من أمور الايمان ،
فان ذلك يفسد العقيدة من أساسها ويفتح عليه أبواب الشك حتى تقض
اليقين من مضجعه •

ونحن نصور النظام الاسلامى كحصن بالترتيب المبين فى الشكل
السابق ••

المقر الداخلى (الذى به القيادة) هو الايمان اذ أن به تنصلح
كل الأمور ، وبفساده تفسد كل الأمور •

وهذا القلب الداخلى يحرسه سور من العبادات ••

فلا يستقيم الايمان الا باستقامة العبادات وانتظامها ••

والعبادات بدورها لا تستقيم ولا تنتظم الا باستقرار الأحوال
اللطيفة بالانسان وأهمها حالته فى أسرته وأهله وأقاربه وجيرانه ونحو
ذلك من العلاقات المباشرة ••

وهذه العلاقات اللطيفة لا تستقيم الا بتوفر المال اللازم واستقرار
التعامل والاطمئنان فيها ، مما يحققه نظام كفاء للمعاملات المالية والسياسية
الاقتصادية ••

وهذه أيضا لا تستقيم الا بانتظام الحياة الاجتماعية والنظم
السياسية والدولية ••

لأن المسلم لا يستطيع أن ينعم بنظام المعاملات الاسلامى الا اذا كان
النظام السياسى يسمح بذلك •

والنظام السياسى لا يستطيع أن يكون اسلاميا الا اذا كان المركز
الدولى للمسلمين من القوة والمتانة بحيث يقف فى مواجهة الغزو الفكرى
والثقافى الخارجى الذى يجبر المسلمين على التخلّى عن نظمهم واتخاذ
هذه النظرة المغيرة •• فان النظريات والنظم لا تستقر الا بسند دولى ••

وهكذا فان انهيار المركز الدولي الاسلامى ، يؤدى الى انهيار النظام السياسى الدستورى الاسلامى ، فنظام المعاملات والاقتصاد الاسلامى ، فنظام الأحوال الشخصية والعلاقات اللصيقة بالانسان فعباداته فإيمانه ..

والشك فى أى حتمية اسلامية على طول هذا التسلسل يؤدى فى النهاية الى التأثير فى الايمان •

فاذا بدأنا بالعلاقات الدولية فان العجز عن اجابة سؤال يتعلق بها ، يؤدى الى نقض هذا السور الأول من أسوار الايمان •
ومن هذه الأسئلة :

كيف تؤمن بنظام دولى يعترف بالرق ؟
أو كيف تؤمن بنظام دولى يقر الجزية على غير المسلمين فقط ؟
أو كيف تؤمن بنظام يقسم العالم الى دار حرب ودار اسلام ..
فيجب على المسلم أن يفهم هذه الأمور وأمثالها حفظاً لهذا السور •
فاذا انتقلنا الى السور الثانى - سور النظام الدستورى •
فان عدم الايمان بتحقيق ما ورد فى الكتاب والسنة فيه يززع هذا السور ويهدمه ..

ومن هذا القبيل :
كيف تنفذ نظام البيعة وهو مختلف عن نظام الانتخاب العام ..
أو كيف تستقيم الحريات فى ضوء القيود الاسلامية ..
أو كيف تنفذ نظام الشورى وهو مغاير لنظام المجالس الشعبية النيابية ..

وعدم الايمان بالأحكام الاسلامية فى هذه الأبواب وأمثالها يدك هذا السور بدوره ، فينفذ الخلل الى السور الثانى وهو سور المعاملات والاقتصاد ..

وعند ذلك يندك السور التالي ، فتسيطر المادة على علاقات
الزوجية والرحم والقراة والجوار •

وعند ذلك لا يستقيم الانسان في عباداته لأنه سيضع « القرش »
فوق المادة •

وعند ذلك لا تستقيم عقيدته ••

ويتشكك في أسس هذه العقيدة ••

هل حقيقة يوجد قضاء وقدر •• وما معناها ؟

هل حقيقة يوجد حساب وآخرة ••

فاذا به يقرأ القرآن ولا يعيه •• اذ سيجد فيه ألفاظا بلا معانى ••
اذ أنه لا يؤمن بحقيقة الجنة والنار عندما يقرأ آيات الترغيب والترهيب
بهما ••

ولا يؤمن بالملائكة والشياطين عند ذكر ما يرتبط بهما ••

ولا يؤمن بحتمية القوانين البشرية الخالدة مثل قوله تعالى :
« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » أو « ولا يحيط المكر
السيء الا بأهله » أو « لئن شكرتم لأزيدنكم » أو « ولينصرن الله من
ينصره » •

فلا يعمل على ايجاد ما تتحقق به هذه القوانين ولا يخشى الأسباب
المعوقة لها ••

وبذلك لا يتحول القرآن في نفسه الى « واقع » والى « برنامج
عمل » والى « امام ومرشد وهاد » بل يظل مزامير للتغنى وأناشيد
للمآتم ، وتعاويد للبركة أو الحفظ ، ونحو ذلك مما نشاهده من أحوال
المسلمين حيال كتاب الله الكبير •

وبذلك تبطل الحتمية الاسلامية ••

ويبطل التفسير الروحي للتاريخ ••

ويبطل التفسير الأساسي للدوافع الانسانية وقوانين الحياة العليا في

نظام البشر ••